

الصحافة السياسية في بيروت بين نفوذ القناصل وسلطة الحكام

د. حسن زعور

مقدمة :

هل أن الممارك التي خاضتها الصحافة في الماضي هي نفسها التي تخوضها اليوم ؟ وهل ان الأعداء هم الأعداء أنفسهم ، وهل الأسلوب هو نفسه والجهة هي نفسها وإن اختلف الزمن وتبدلت الأسماء ، وتغيرت الصور ، وتحولت المفاهيم ، وتباينت المخططات والدراسات ، حيث دخلت اليوم التكنولوجيا جميع ميادين الحياة ؟ وهل ان المصطلحات التي جرى تداولها في الفترة التي ندرس هي معطيات لها أساسها الموضوعي في الواقع أم وضعت عن قصد من قِبَل الدوائر الغربية استمراراً لهيمنتها ؟ يعترض البعض بقوله أنه لا يصح منهجياً إسقاط مفاهيم ومصطلحات عصور مضت على أرض الواقع وما يجري الآن من تنازع وتنافس تعكسها الصحافة المحلية يومياً بين الطوائف . نقول ببساطة ولا ندعي تقديم أجوبة جاهزة للأسئلة التي طرحت ، بقدر ما كان الهدف منا ، الرجوع الى بعض المصادر الأساسية ووضع الاصبع على مكن الداء الذي ما يزال ينخر جسر مجتمعاتنا حتى اليوم . الإطار العام الذي يدور البحث حوله ، هو فترة مهمة من تاريخ لبنان السياسي حيث تضامنت إزاءها مصالح الدول الكبرى ووضعت له حدوداً مصطنعة وبالتالي عملت تفتيتاً بشعوب هذه المنطقة استمراراً لهيمنتها ونهب خيراتها . ولسنا نغالي بالقول ، أنه منذ أن طرحت المسألة الشرقية على بساط البحث في الدوائر الغربية ، كان لبنان هو الثغرة الضعيفة التي دخلت منه الدول الكبرى ، وما زال حتى الآن مهيباً ليكون الهدف الأول ونقطة العبور الى بقية المنطقة . وكما كان لبنان مقسماً منذ منتصف القرن الماضي بين متصرفية الجبل التي عزلت قسراً عن مدينة بيروت ومرفئها بنظامها الخاص ، كانت بيروت تشكل لواء تابعاً لولاية سورية ثم ولاية مستقلة فيما بعد . وفي هذه الأجواء كانت الصحافة وهي موضوع بحثنا ، انعكاساً حقيقياً لهذا الانقسام السياسي .

الظروف السياسية والاجتماعية التي رافقت نشأة الصحافة في بيروت خلال النصف الثاني من القرن 19 ، وحتى بدايات

هذا القرن .

بدأت إرهابات نمو الوعي السياسي بالظهور ، عندما أخذت بيروت تشهد تطوراً اقتصادياً واجتماعياً ، وتلقى اهتمام الدوائر الغربية . وظهر هذا واضحاً ، منذ إعلان النظام الأساسي لمتصرفية الجبل عام 1864 ، ومنذ أن كانت بيروت متصرفية تابعة لولاية سوريا ، شهدت خلالها حركات مطلبية نادت بجعل بيروت مركزاً تجارياً من الدرجة الأولى عبر توسيع مرفئها ، ونقل مركز

الولاية إليها ، وأحياناً أخرى بضمها إلى متصرفية الجبل . كما كانت الصحافة البيروتية منبراً تعبر هذه الحركات المطالبة من خلالها عن مواقفها إزاء نزاع والي بيروت مع بعض اللبنانيين أثناء خرق القوات العثمانية حدود متصرفية جبل لبنان ، والبعض الآخر ، المؤيد للعثمانيين في هذا الموضوع . كما شهدت الساحة البيروتية جدلاً حاداً بين الصحف المؤيدة والمعارضة لموضوع تمثيل بعض اللبنانيين في الجبل ، في « مجلس المبعوثان » . هذا التباين ، في مواقف الصحف بالنسبة للأحداث الجارية ، كان يقابله تضامناً بين الطوائف المسيحية والاسلامية ضد العدوان الايطالي ، وذلك على أثر إعلان ضم ولايتي « البوسنة » و « الهرسك » التابعتين للدولة العثمانية ، وعلى أثر الخلاف العثماني - الايطالي في ولاية طرابلس الغرب (ليبيا) بحيث أرادت الحكومة الايطالية التخفيف من مقاومة الجيوش العثمانية في طرابلس فأرسلت بعض قطعها البحرية نحو بيروت وتم قصفها بالمدافع .

كما سنرى ، من خلال هذه الصحف انخفاض وتيرة الدعم لممثلي السلطنة العثمانية في المدينة ، عند مطالبة الطوائف بحقوق العرب وعدم الاذعان لمطالبهم .

ومن المقدمات الأساسية لبروز هذا الوعي ، التطورات الاقتصادية المهمة التي ابتدأت منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وأحدثت انقلاباً واسعاً في الوسائل الفنية في مجال الصحافة على الصعيد الأوروبي ، وكان لاختراع وسيلة النقل بالسكة الحديدية ، وكذلك الاتصال اللاسلكي ، أثره البالغ على سرعة تطور وسائل الاعلام ، فازدادت الصحف وعظم شأنها تبعاً لزيادة عدد القراء . كما أن التطور في أساليب الحكم ، وازدياد العلاقات الدولية تشعباً وتبايناً كانا ينعكسان على الحرية الصحفية سلباً وإيجاباً . ثم جاء عامل مهم وخطير ، وهو ازدياد نمو الوعي عند الناس فأخذت الجبهة والأمة في الاختفاء ، وكثرت المدارس والجامعات ، وحصلت الشعوب على قسط كبير من الحرية ، في حين كانت الشعوب العربية تتخبط تحت نير الاحتلال الاستعماري ، وتجاهد للتخلص من نير الجهل والاستعمار والاستبداد⁽¹⁾ .

ومعروف أن الصحافة ، في هذا الوقت ، لم تكن منظمة بقانون واضح صريح يعطي الصحافة حريات ، ويضع لها حدوداً ، بل كان الأمر يتعلق بمزاج الحاكم ، ومرتبطة بشؤون (النظارة) أي بوزارة المعارف ونظارة الداخلية في اسطنبول . والرقابة المسبقة كانت تفرض تكراراً لا سيما في أوقات الحرب . فيطبقها (المكتبجي) في الولاية وهو مراقب المطبوعات⁽²⁾ . وفي هذه الأثناء ، اشتدت المراقبة على الصحف في سوريا ، واغتازت الحكومة من نجيب البستاني لنشره ترجمة مدحت باشا زعيم الأحرار العثماني في جريدة « الجثة » ، فأصدرت الأوامر بتعطيل الجريدة مما ألحق بصاحبها خسارة كبيرة . ولما كانت الصحيفة المذكورة قد عرفت بالدفاع عن حقوق العثمانيين والضرب على أيدي المفسدين ، أبى صاحبها أن يجعلها آلة في أيدي مأموري المطبوعات ، أو هدفاً للأهواء ، فتوقف عن إصدارها ، على الرغم من صدور الارادة السلطانية بالعفو عنه بمساعي ناظر الخارجية⁽³⁾ . كما طال يد الرقيب على المطبوعات جريدة « الفوائد » (أصدرها خليل البدوي عام 1888) حين نشرت مقالاً افتتاحياً في نطاق نشرها سلسلة مقالات عن تاريخ الدول الكبرى ، ورد فيه اسم روما عاصمة ايطاليا مقام الخلافة ، فاختلف أعداء الجريدة التأويلات وأوهمو السلطان أنها ترمي الى نقل الخلافة الاسلامية من القسطنطينية الى روما مقر الباباوات . فأصدر السلطان ارادة سنية بتعطيل « الفوائد » وملاحقة صاحبها .

كذلك تعرضت جريدة البشير (أسست عام 1870) اثناء نشوب الحرب في طرابلس الغرب بين الدولة العثمانية وايطاليا عامي 1911 - 1912 ، للإقفال عندما أصدر ناظر الخربية العثمانية أمراً يمنع فيه الجرائد عن نشر المعلومات المتعلقة بالدفاع المدني . وهكذا نرى ، فشل السلطنة العثمانية بادخال الاصلاحات وبعض التنظيمات الى مراكز الولايات التابعة لها ، وبعد سيادة الفوضى والرشاوى بين الموظفين ، ازدادت وتيرة المعارضة ، وكانت للجمعيات السرية والصحافة البيروتية الدور الفعال في خوض الصراع . لكن وعلى الرغم من سلسلة الاخفاقات التي واجهت هذه القوى في بعض الاحيان ، نظراً لتباين وجهات النظر فيما بينها من جهة ، وارهاب الولاة وقمع توجهات هذه الأصوات من جهة ثانية ، استطاعت ازاء هذا الوضع ، فئة من المتنورين ، وفي وقت كانت العداوات الطائفية سائدة في البلاد ، تأسيس العديد من الجمعيات والصحف المناوئة للحكم ، فظهرت في بيروت في

أعوام 1850 , 1868 , 1875 ، جمعيات سرية كان أكثر أعضائها يعملون كمحورين في الصحف نذكر منهم : سليم البستاني ، والمعلم بطرس البستاني (صاحب جريدة نفيير سوريا أسست عام 1860) ، ويوسف الشلفون ، صاحب جريدة التقدم أسسها عام 1874 ، وكارنيليوس فاندريك ، صاحب « النشرة الأسبوعية » التي كانت تصدر عن الكلية الانجيلية (الجامعة الاميريكية) ، ويعقوب صروف وفارس نمر ، وفيما بعد عبد القادر قباني صاحب « ثمرات الفنون » ، وعبد الغني العربي صاحب « المفيد »⁽⁴⁾ . وعلى أثر اشتداد حركة المعارضة في بيروت ، وبتاريخ 30 كانون الأول (ديسمبر) 1880 م بعث القنصل الفرنسي فيها رسالة الى وزير الخارجية الفرنسية بشأن المنشورات السرية التي كان يوزعها بعض الشبان في المدينة يقول فيها :

« ... نشرت إحدى الصحف الأجنبية في بيروت (Le Journal des debats) ترجمة للمنشورات التي وُزعت أخيراً ، وألصقت على جدران أحد الشوارع في المدينة . ونحن نعتقد ، أن هذه المنشورات صدرت عن مجموعة من الشبان الذين تخرجوا من مدارس ، وقد تأثر هؤلاء بأفكار « روسو » والموسوعيين . ويضيف القنصل « انه عندما علم الباب العالي بما يجري في مدينة صيدا وجّه لوماً شديداً الى والي سوريا وذلك لعدم كشفه عن موزعي هذه المنشورات السرية في المدينة ، هذا مع العلم أن ملصقات مشابهة قد ظهرت لفترة وجيزة على الجدران في شوارع دمشق ، بيروت ، وطرابلس ومدن أخرى ... »⁽⁵⁾ . وركزت هذه المنشورات على المطالب التالية :

- 1 - منح الاستقلال التام لسوريا متحدة مع إخوانهم اللبنانيين (يعني هنا سكان جبل لبنان) .
- 2 - الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في البلاد مع صيانة حرية الفكر والصحافة والعمل .
- 3 - استخدام أهل البلاد في المهام العسكرية الداخلية .

هذا ، وقد ظهرت وجهات النظر المتباينة في هذه الفترة من قبل بعض العائلات الاسلامية في بيروت ، بصدد ما جاء في مضمون المنشورات الموجهة ضد السياسة التركية في البلاد ، مستنكرة ما جاء فيها . أكد ذلك ، القنصل الفرنسي في رسالته بتاريخ 2 كانون الثاني من عام 1881 :

« ... ان هذه المنشورات أثارت احتجاج بعض العائلات الاسلامية في بيروت ، فعائلة بيهم ، ارسلت الى الوالي رسالة موقعة من وجهائها ادانت فيها ما جاء في المنشورات من أفكار هدامة داعية لملاحقة قاسية لموزعيها »⁽⁶⁾ .

موقف الصحافة المحلية من النزاعات القائمة بين الاطراف

إن نظرة ثنائية لمواقف الصحافة في بيروت في هذه الفترة تُبين بجملة ، مدى تصارع التيارات الفكرية والسياسية . فالبعض منها أسهم بنقل الواقع ، وحاول التخفيف من حدة الصراعات القائمة داعياً إلى عدم الاقتتال بين إخوة الصف الواحد ، والبعض الآخر خاض جدالاً عنيفاً للدفاع عن وجهة نظر هذا الفريق ضد الطرف الآخر . هذا ويقدم لنا كتاب « تاريخ الصحافة العربية » مثلاً على مواقف بعض الصحف التي كانت تصدر في بيروت في تلك الفترة ، منها من جاهر في موقفه داعياً الى وحدة عثمانية تتألف فيها جميع عناصر الوطن ، والبعض الآخر طالب بالاسراع في عملية الاصلاح متقدماً مؤسسات الولاية (بيروت) وما يعترها من خلل وفساد . فقد كان أكثر الصحفيين في الفترة الواقعة بين عامي 1869 - 1912 ، من العثمانيين ، لا سيما أبناء سوريا الذين يرجع الفضل لهم في إحياء النهضة العربية والحركة الفكرية شرقاً وغرباً . هذا مع العلم أنه لم يكن للصحافة دور يذكر في عام 1870 . حيث كان انتشارها في بادئ الأمر بطيئاً ثم لم تلبث أن « هبّت من كبوتها وأثارت بنيرانها عقول الناس ، بحيث أن أطول الصحافة العربية عمراً بلغ عددها أربعاً وثلاثين جريدة ومجلة »⁽⁷⁾ .

ومن الصحف التي لعبت دوراً بارزاً في هذه الفترة : جريدة « البشير » للأباء اليسوعيين التي خاضت مجادلات دينية ومناقشات علمية طويلة مع الصحف البيروتية لا سيما « النشرة الأسبوعية » التابعة للمرسلين الاميركان فيما يتعلق ببعض القضايا المختلف عليها بين الكاثوليك والبروتستانت⁽⁸⁾ ، وبين صحيفة « ثمرات الفنون » التي كانت تعبر عن رأي المسلمين في بيروت

ودعا مؤسسها عبد القادر قباني للمحافظة على وحدة الجامعة العثمانية ، وأن يقوم بتحرير كل جريدة نخبة من الكتاب من جميع الطوائف تدعو الى التفاهم والمحبة ونبد كل ما يدعو الى سوء التفاهم والدعوة الى طاعة السلطان والالتفاف حول عرشه . غير أن قانون مراقبة المطبوعات كان بالمرصاد للصحف التي كانت تنتقد بعض المؤسسات الرسمية وتنتشر أخباراً لا توافق سياسة السلطات المحلية . نذكر منها على سبيل المثال ، صحيفة « التقدم » كما ذكرنا سابقاً ، التي عطلت عام 1888 ، بأمر من والي بيروت نصوح بك ، وذلك لنشرها عبارات موجبة لتهميج الرأي العام . كذلك جريدة « المصباح » التي أسسها نقولا النقاش وكانت لسان حال الطائفة المارونية تنشر أخبارها وتدافع عن مصالحها ، وكان ذلك بإشراف المطران يوسف الدبس رئيس أساقفة بيروت آنذاك . فقد أمرت الحكومة بتعطيل هذه الصحيفة مرتان ، الأولى عام 1889 ، إثر وفاة يوسف كرم في منفاه بمدينة نابولي حيث رثته الجريدة بمقالة لم ترق في عيون أرباب السلطة المحلية ، والثانية عام 1899 ، عقب مقالة اصلاحية انتقد فيها محررها إبراهيم سليم النجار أعمال بلدية بيروت وما فيها من خلل⁽⁹⁾ .

وعن قمع السلطات المحلية لحرية التعبير عن آرائها كتبت مجلة « المفتطف »⁽¹⁰⁾ مقالاً عام 1903 ، تحت عنوان بيروت وحوادثها ، هاجت فيه استبداد السلطة والسياسة التي فرقت بين أهالي المدينة بعد أن ساد الوئام بينهم لفترة طويلة ، وساد انتشار الرشاوى بين الموظفين :

« ... ألجم الاستبداد ألسنة جرائدها وضيق المراقبة حلقات مطابعها ، وميزت السياسة بين سكانها لتفريق كلمتهم ، وجاء فقراء المأمورين وقد ابتاعوا مناصبهم ابتغاءاً بالرشاوى ... فناوش السكان بعضهم بعضاً يقسمهم الدين ولا يزعهم وازع وأخطرت الفئة الكبرى منهم أن تخرج من المدينة وتلجأ إلى الجبال لأنها غير مسلحة وتم غرض محبي التفريق وزارعي الشقاق ... »⁽¹⁰⁾ .

وفي مكان آخر ، تضيف المجلة بعد أن تنقل مواقف الأطراف والتيارات السياسية المتصارعة :

« ... ينتقلون إلى الإشارة بالعلاج الذي يعالج هذا الداء ، فمنهم من يشير بضم ولاية بيروت الى جبل لبنان وإشراكها في امتيازاته ، ومنهم من يتوسع ويطلب أن تجعل ولاية سوريا ولاية واحدة مع جبل لبنان وتعطى نوعاً من الاستقلال الإداري تحت سيادة الدولة العلية ... »⁽¹¹⁾ . وتورد المجلة أبياتاً من الشعر للشاعر نقولا رزق الله (1869 - 1915 م) جاءت معبرة عن الواقع الذي عاشته بيروت في تلك الفترة :

سلام على بيروت لولا التحزب	وحكام سوء أفسدوها وخربوا
يقاتل فيها البعض بعضاً كأنه	عدو عليه قتله الدين يوجب
أيرضى بهذا دين عيسى وأحمد	وفي كل دين زاجر ومؤنب

تياران في الصحافة المحلية

تسارعت جملة من الأحداث خلال هذه الفترة ، شكّلت نقطة تحوّل رئيسية لما كان لها من انعكاسات سلبية على مجمل التوجهات السياسية لبعض الطوائف في بيروت . وكان للصحافة البيروتية دور مؤثر في ذلك الوقت . هذا ، ولا بد من الإشارة هنا ، أنه كان هناك فصل سياسي وإداري بين المدينة (بيروت) ومتصرفية الجبل ، بحيث كان لكل منها نظامه الخاص . لذا ،

(١) أصدرها في بيروت كل من يعقوب صروف ، وفارس نمر عام 1876 م ، وحين نزحنا الى مصر عام 1883 اصطحبنا المجلة حيث أضحت أحد المنابر الكبرى للرأي الحر ، وبقيت مستمرة في الصدور حتى عام 1952 : أنظر كمال الصليبي تاريخ لبنان الحديث ، دار النهار للنشر بيروت 1972 ، ص

نرى صحيفة « المفيد » وغيرها مثلاً تمثل الموقف الاسلامي المدافع (انتقلت هذه الصحيفة بعد ذلك الى مواقع الهجوم والانتقاد ضد السلطات المحلية) عن السلطنة العثمانية ، بالمقابل ، كانت الصحف الأخرى - « الأرز » ، « الثبات » ، « اليقظة » ، « الوطن » .. تمثل وجهة النظر المسيحية . وهذا ما بيّنته تقارير القنصل الفرنسي فيما يتعلق بمسألة اشتراك الجبل في البرلمان العثماني ، وردود الفعل على هذا الحدث في الصحافة المحلية . والحدث الثاني ، الذي كان له الأثر الكبير في نفوس المسلمين هو ضم النمسا لمقاطعتي - البوسنة والمهرسك - التابعتين للسلطنة العثمانية في البلقان ، وكانت ردود الفعل على هذا الحدث مقاطعة البضائع النمساوية في مرفأ بيروت كما سنرى . هذا بالإضافة الى ردود الفعل على اعلان الدستور عام 1908 ، وبداية العمل السياسي المنظم ضد سياسة التريك التي جرت عليها جمعية الاتحاد والترقي . وأخيراً ، ردود الفعل على ضرب بيروت ومحاصرتها من قبل السفن الايطالية ووقوع العديد من القتل والجرحى في صفوف سكان المدينة .

من يمثل صحافة المعارضة:

بعد إنقلاب جمعية الاتحاد والترقي واستلامها الحكم تمّ عزل السلطان عبدا حميد عن سدة السلطنة وأعلن الدستور عام 1908 ، إزاء هذه التطورات عادت مسألة اشتراك جبل لبنان^(٢) في البرلمان العثماني لطرح من جديد . وشهدت بيروت صراعا سياسياً خاضت غماره الصحافة الصادرة في المدينة وأطرافها التابعة لمصرفية الجبل ، والتي دعت الى اجتماعات كانت بيروت مسرحاً لها . أما بصدد انتخاب نائب عن مصرفية الجبل ، فقد وجه الصدر الأعظم رسالة الى سكان لبنان (الجبل) يدعواهم فيها الى انتخاب من يمثلهم في « مجلس المبعوثان » القادم . اضافة الى قرارات تحد من حرية الصحافة الصادرة فيها . وقد أثارت هذه الدعوات سخط المسيحيين فتداعوا الى عقد اجتماعات وتقديم شكاوى وعرائض عبر صحافتهم . وضمت هذه الاجتماعات عدداً من وجهاء المسيحيين والدروز الذين يمثلون وجهات نظر اللبنانيين في جميع مقاطعات الجبل . رفض هؤلاء تسمية اي نائب ليقوم بتمثيلهم في مجلس المبعوثان^(٣) والامتناع عن تطبيق القوانين الجديدة فيما يتعلق بحرية الصحافة إلا بعد موافقة الدول الخمس الكبرى الموقعة على النظام الأساسي للمصرفية .

أما الصحف التي خاضت على صفحاتها معركة انتخاب ممثلين الى مجلس المبعوثان ، واعتبرت الاعلان عن هذا التمثيل من قبل السلطنة العثمانية هو تدخل مباشر في شؤون الجبل ، فقد تداعى اصحابها الى عقد اجتماعات دورية في المدينة وخارجها ، وقاموا بزيارات متكررة الى القنصلية الفرنسية مطالبين بدعم مواقفهم تجاه هذا التدخل .

وقد استطعنا من قراءة بعض الرسائل التي كان يوجهها قناصل فرنسا الى وزراء الخارجية الفرنسية في باريس معرفة تطورات الوضع في المدينة ومواقف بعض الصحف ازاء ذلك . نشير هنا ، إلى ما كتبه جريدة « الأحوال »^(٤) في 26 أيلول 1908 ، بخصوص الاجتماع الذي تم في بيروت برئاسة خليل بدورة حضره مختلف أعيان الجبل من موارد ودروز وغيرهم من الطوائف ، وجهوا من خلاله عريضة موقعة من أهالي دير القمر إلى سفراء الدول الكبرى وقناصلها في بيروت والقسطنطينية ، ونسخاً عنها إلى بلديات زحلة ، جزين ، جونيه ، غزير ، بكفيا ، بشري . . . تؤكد فيها معارضتهم لتدخل السلطنة في شؤون الجبل . وكتبت جريدة « لسان الحال »^(٥) ، بخصوص معركة الحريات في الجبل : إزاء موضوع التدخل العثماني في الجبل قام ممثل الصحافة

(٢) أصبح جبل لبنان متصرفية مستقلة لها نظامها الخاص منذ عام 1864 ، في حين أصبحت بيروت ولاية مستقلة - بعد أن كانت لواء تابعاً لولاية سورية - عام 1888 ، تتبع مباشرة لأوامر الحكام في اسطنبول .

(٣) « الأحوال » جريدة يومية صدرت في بيروت عام 1891 ، صاحبها خليل البدوي .

انظر : ADEL Ismail : Document... Tome 18, p. 106 - 7 .

(٤) لسان الحال جريدة لبنانية صدرت في بيروت عام 1877 ، صاحبها خليل سركيس : انظر : ADEL Ismail : OP Cit P. 103 .

اللبنانية أثناء زيارته إلى القنصل الفرنسي في بيروت في 23 كانون الأول 1909 بتقديم عريضة تمثل وجهة نظر الصحافة اللبنانية تؤكد معارضتهم تطبيق القوانين العثمانية على أرض المتصرفية ، دون أخذ موافقة الدول الكبرى ، كذلك عدم موافقة اللبنانيين إرسال ممثلين عنهم إلى مجلس المبعوثان . أما الذين وقّعوا العريضة هم :

فيليب باخوس مدير جريدة « الروضة » (بعبد) ، فيليب الخازن مدير جريدة « الأرض » (جونية) ، عبود أبي راشد مدير جريدة « النصير »^(٥) (الحدث) ، عبود خوري مدير جريدة « المهذب » (زحلة) ، طويي عطا الله مدير جريدة « الحق » ، وأخيراً مدير جريدة « الحكمة » (جبيل) .

وفي شباط عام 1910 ، رفع أعضاء نقابة الصحافة إلى القنصل الفرنسي عريضة احتجاج ضد تطبيق المادة 35 من قانون الصحافة الجديد ، رافضين الخضوع لنصوصها قبل موافقة الدول الموقعة على القانون الاساسي⁽¹³⁾ .

ومن الملفت للنظر ، أن صراعاً على النفوذ من قبل الدول الكبرى انكسرت ، فرنسا ، روسيا ، كانت تشهده الساحة البيروتية ، لاستقطاب المؤيدين والأنصار في صفوف الطوائف .

وهذا ، ما تؤكده صحيفتا « الوطن »^(٦) التي تمثل وجهة النظر المارونية ، و « صدى لبنان »^(٧) ، حيث ركزت الأولى على أهمية الحماية التي تقدمها الدول الكبرى إلى متصرفية الجبل ، وتؤكد على ضعف المتصرف أمام نفوذ جمعية الاتحاد والترقي ، بينما ركزت الثانية على انقسام الطوائف وعلاقاتهم بقناصل الدول الكبرى مع الإشارة إلى محاولة القنصل الإنكليزي التقرب من بعض الشخصيات المارونية المعروفة بعلاقاتها الوطيدة مع الفرنسيين ، واستمالتها عبر عرض بعض الوظائف عليها⁽¹⁴⁾ . وفي هذا الصدد أكدت جريدة « لسان الحال » تدخل القنصل الإنكليزي في شؤون اللبنانيين عبر علاقته الوطيدة بمتصرف الجبل⁽¹⁵⁾ .

ونظراً للاهتمام الخاص الذي كانت توليه القنصلية الفرنسية لافتتاحيات الصحف المؤيدة والمعارضة لوجهة النظر الفرنسية ، فقد درجت القنصلية وباستمرار على ارسال نسخ من هذه الصحف عبر التقارير التي كان يوجهها القنصل إلى وزارة الخارجية الفرنسية في باريس . وفي تقريره الخاص المؤرخ في أول نيسان (ابريل) 1911 ، كانت الرسالة المفتوحة التي قدمتها جريدتنا « اليقظة »^(٨) ، و « الثبات »^(٩) إلى قناصل الدول الكبرى في بيروت ، تطلب فيها مساعدة اهالي الجبل ، ووضع حد للفوضى السائدة فيه والتي تنذر بكارث كبيرة . والطلب أيضاً من الباب العالي المساعدة بالوسائل الممكنة للحد من موجة الهجرة إلى أميركا ، بسبب كثرة التعديلات وأعمال العنف ، وتوقف عجلة التجارة ، وإهمال الأراضي الزراعية ، خاصة أن مواسم وتجارة الحرير في شمال البلاد قد شلت في السنة الماضية ، والمعارك بين اهالي بشري وجيرانهم في اهدن وحسرون . وخلصت الرسالة إلى مهاجمة متصرف الجبل يوسف باشا لأنه يهمل مصلحة لبنان ويعمل وينفذ مصالح السلطة المركزية في تركيا ، وهذا مما سيؤدي إلى ضياع استقلال لبنان ، مؤكدة على سيادة متصرفية الجبل وعلى انتخاب مجلس إدارة شرعي في ظل ظروف عادية⁽¹⁶⁾ .

بداية السجال والمواجهة بين الصحافة

هذا ، وشهدت الساحة البيروتية جدالاً حاداً بين الصحف المؤيدة لموضوع التمثيل ، والصحف المعارضة له . وأتممت الصحف الممثلة لوجهة النظر المسيحية في المدينة وهي « الثبات » و « الاحوال » و « الوطن » ، و « النصير » ، و « الأرض » و

(٥) النصير جريدة يومية أسسها عبود أبي راشد في بيروت في اول كانون الثاني عام 1901 ، أنظر : ADEL Ismail : OP cit P. 258 .

(٦) الوطن : جريدة يومية أسسها في بيروت عام 1908 ، شلي الملاط ووديع عقل وجرجي عوض . أنظر : ADEL Ismail : OP cit Tome 18, pp. 272, 73, 74

(٧) صدى لبنان : جريدة يومية أسسها سجعان سعادة في جونية عام 1910 .

(٨) اليقظة : جريدة باللغة الفرنسية أصدرها في بيروت اسكندر خوري (المدعوم من القنصلية الفرنسية) عام 1909 .

(٩) الثبات : جريدة باللغة العربية أصدرها في بيروت اسكندر خوري عام 1908 .

« اليقظة » ... بعلاقتها مع القنصل الفرنسي والدعوة الى الفوضى وزيادة التوتر والانقسام بين الطوائف . وتصدت الصحف المؤيدة لوجهة النظر الاسلامية مدافعة عن الوضع القائم . منها صحيفتا « المفيد »^(١٦) و « الهامش »^(١٧) . وإزاء هذا الوضع ، حاولت جمعية الاتحاد والترقي تهدئة الصراع القائم على صفحات هذه الجرائد تحت شعار ان الجميع هم عثمانيون . وتم اجتماع لمثلي الصحافة المحلية في مقر الجمعية في بيروت^(١٧) ، وكانت حصيلة الاجتماع إحالة السلطات المحلية بعض أصحاب هذه الصحف للمثول أمام المحكمة بتهمة التحريض على الفوضى . كتبت صحيفة « المفيد » في هذا الموضوع تقول :

« ... من الحكمة للبنان إذا رغب في التقدم أن يوجه وجهته للدولة العثمانية ويقطع كل أمل من الدول . وإلا ما دام هؤلاء اللبنانيين يتسارعون عند كل حادثة الى القناصل ، فان الدولة تلغي امتيازاتهم بأسرع ما يمكن من الزمن . . . وخير لهم ان كانوا من العقلاء أن يبادروا بانتخاب نواب لهم ليدافعوا عنهم لدى الحكومة . . . »^(١٨) .

وقد ردت صحيفة « الأرز » على هذا الموقف بقولها :

« لقد عنت جريدة « المفيد » ومزجت الوعيد بالتهديد للبنانيين المعارضين للانتخابات النيابية فنحن نذكر هذه الصحيفة ومنذ زمن ليس ببعيد ، على احتجاجهم ضد القرار الذي اتخذته الحكومة التركية بجعل اللغة التركية اللغة الرسمية في كافة الامبراطورية . وكان مصيرها حينذاك تعطيل الجريدة . . »^(١٩) .

وهكذا ، ترى صحيفة « المفيد » تسير في نهج السياسة العثمانية ، وتخوض معاركها السياسية تدافع عن المصالح العليا للدولة العثمانية ، فتتصدى للصحف التي كانت تسير في ركاب القناصل الفرنسيين وبتوجيه منهم ، وتدخل في سجال عنيف مع صحيفة الثبات ذات البول الفرنسية تقول :

« نحن ما زلنا نتجنب حتى هذه اللحظة الخوض في نقاش وضع على الرغم من رغبة « الثبات » في ذلك . . . لا نحب أن نضيق وقتنا ووقت قرائنا في مهاترات كهذه . وكما تعلم « الثبات » أن هدف صحيفتنا الأساسي هو أن تبقى دائماً مستعدة للدفاع عن المصالح العليا لبلدنا . . . وكما تعلم « الثبات » أن حكومتنا العليا مستعدة الآن كما في السابق قطع يد كل تدخل أجنبي . . . سنستمر في احتقار هذه الصحيفة ما دامت تصر بمحاولاتها المتكررة كتابة المقالات التي تهدف إيقاع الفتنة بين الطائفتين الاسلامية والمسيحية . . »^(٢٠) .

وترد « الثبات » بمقالة عنوانها : « في السكوت جريمة »

« ... إن ناشري مقال « المفيد » يثير السخرية ، وبحاجة الى دروس في الأخلاق ، ويدل على انحطاط أفكار هؤلاء الصبائية . . » وينتهي القنصل الفرنسي تقريره بالقول :

« ... يبدو لنا أن هذه الصحيفة (يعني بها « المفيد ») تشير مشاكل خطيرة وتزيد من حدة التعصب ضد الأجانب . . »^(٢١) .

والجدري بالملاحظة هنا ، الإشارة الى موقف جريدة « المفيد » عام 1913 ، وهي الفترة التي حملت فيها لواء الإصلاح في وجه السلطة المحلية ، وكانت في طليعة المدافعين عن حقوق ومطالب سكان الجبل والمدينة ، حين تعرضت مكانها للإقفال وتشريد محرريها ، وفي طليعتهم مؤسسها عبد الغني العريسي الذي كان في عداد شهداء لبنان فيما بعد : « فالوطنية والغيرة على البلاد تقضي على رجال الدولة العلية أن يسرعوا بتطبيق الإصلاح العام في المملكة سداً لكل مطمع من الدول ، فيسرنا أن نرى الباب العالي قد أجاب دعوة العثمانيين (سكان الجبل) فمنحهم سعة في صلاحياتهم الادارية . . »^(٢٢) .

(١٠) المفيد : جريدة يومية أسسها عبد الغني العريسي في بيروت في 9 شباط 1909 . انظر : ADEL Ismail : Documents ... OP cit P, 252 .

(١١) الهامش : جريدة صدرت في بيروت عام 1911 ، صاحبها حسن الناطور ، وعلي لطفي .

مواقف الصحافة من الولاية الجدد عام 1909 - 1910

بعد تسلّم جمعية الاتحاد والترقي الحكم في السلطنة العثمانية ، سنّت بعض القوانين منحت بموجبها بعض الحريات للأهالي وأخرى لتطهير الإدارة وذلك بموجب الدستور الجديد . وكان تعيين « أدهم بك » والياً جديداً على بيروت قد لاقى استحساناً وموافقة السكان المسيحيين في المدينة ، بحيث كان أول خطواته مبادرته بإنشاء دار للبلدية في الأحياء التي يسكنها المسيحيون ، غير أن مسلمي بيروت قد عارضوا على ما يبدو مجيء الوالي الجديد ومواقفه ، وظهر ذلك على صفحات جريدة « المفيد » في إحدى مقالاتها التي وُجّهت إلى الوالي منتقدة إياه على مواقفه اللامبالية من الفوضى السائدة في المدينة مطالبة بعزله من منصبه :

« فكّم من دماء أهرقت ، وكّم من نفوس أزهدت وأنت عنها تلهي . . . كانت الأسر الإسلامية في بيروت قبل عهدك محط الصفاء ومطلع الاخاء . . . أما الآن فاعذرنا أيها العزيز على كراهيتك » (23) .

وفي معرض انتقاد صحيفة « المفيد » الموجه لأعضاء البلدية الجدد اثر انسحابهم من لجنة التنسيق بحيث باتت أمور البلدية في أيدي مأمورين جلهم من الترك تقول :

« . . . أما نحن فنلقي التبعة على رئيسي البلدية (في شرق وغرب المدينة) والقاضي ، لأن لجنة التنسيق مؤلفة كلها من المأمورين الترك كالوالي ومدير الرسومات ومدير البريد والبرق ، ومدير المعارف ومكتوبي الولاية ودفتر دارها وقميسية السكة الحديدية وغيرهم ممن لا يعرفون أهل البلاد فإننا نحتج الاحتجاج العنيف على رئيس البلدية ووكيل القاضي لانسحابهم من لجنة التنسيق . . . » (24) . كما أبدى القنصل مخاوفه عبر رسائله الموجهة الى الإدارة الفرنسية في باريس للأجواء التي خيمت على بيروت في هذه الفترة ، وما اعتراها من حملات وجهت ضد الأجانب وقناصلهم ، اضافة الى النزاعات والتقاتل التي سادت شوارع المدينة فيقول :

« لست مبالغاً حين أقول أن ناظم باشا لم يعط انطباعاً بكونه الحاكم الفعلي للولاية لأن جمعية الاتحاد والترقي كانت تمارس عليه تأثيراً كبيراً . . . كما نلاحظ الميول المعادية للأجانب في دوائر البوليس والعدل . . . كما تبدي السلطات المحلية ميلها الى إزالة نظام الامتيازات الأجنبية . . . » (25) .

إن خوف وقلق القنصل الفرنسي المقيم في بيروت أكدته مقالات جريدة « المفيد » العنيفة والموجهة ضد المؤسسات التعليمية التابعة للأجانب ، وكذلك الامتيازات الممنوحة لهم مطالبة الحكومة بإلغاء مقاليد الأمور التجارية والصناعية والزراعية الى الوطنيين (26) .

وفي مقال آخر ، تؤكد « المفيد » على ضرورة الاهتمام باللغة العربية . وكان ذلك ، رداً على عزم الفرنسيين إنشاء مدرسة في بيروت جعلوا التعليم فيها باللغة الفرنسية والتركية جبراً ، والانكليزية والعربية اختياراً . كما إن هذه المدرسة تضيف الصحيفة ، التي يسمعون اليوم إلى تأسيسها مضرة من وجهة الوطنية فإنها لتنزع عن العرب جنسيتهم . . . فمن الضروري أن لا يدخل هذه المدرسة أحد من الأمة لأنه يخرج منها عن الوطنية الصحيحة (27) .

الصحافة تدعم الائتلافيين في وجه سياسة التتريك

إنطلاقاً من المواقف العنصرية التي طبعت سلوك جمعية الاتحاد والترقي ، دفعت بخصومهم من النواب العرب والترك والروم والأرمن والألبان والاكرد في تركيا لتأسيس حزب سياسي معارض أسموه « حزب الائتلاف » . وأسسوا إسوة بالاتحاديين في العاصمة والولايات مكاتب لحزبهم وأندية خاصة للاجتماع والدعاية . وكان لسان حالهم في بيروت جريدة أصدرها الشيخ أحمد طbare سماًها « الاتحاد العثماني » ثم ظهرت جريدة « الحقيقة » التي كان يصدرها كمال عباس نجل الشيخ أحمد عباس الأزهري . في هذا الوقت ، شهدت الصحافة التركية حملة عنيفة معادية للعرب نظمها جرائد جمعية الاتحاد والترقي نذكر منها جريدة « طنين »

التي نشرت مقالاً استثارت فيه المشاعر الطورانية عند الأتراك . وكان رد صحيفة « المفيد »⁽²⁸⁾ البيروتية على هذه الدعوات بأنها تمثل رأي صاحبها لا رأي العنصر التركي . وأن نواب العرب والترك على الرغم من التباين في وجهات النظر في نقاشات مجلس المبعوثان . فإن مناقشتهم ومنازعاتهم لا تخرج عن إصلاح هذا الوطن .

هكذا نرى ، كيف أن الصحافة لعبت دوراً بارزاً في تأييد حزب الائتلاف المعارض للاتحاديين ، وذلك أثناء الحملة الانتخابية التي خاضها الحزبان في مدينة بيروت ، وكانت صحيفة « المفيد » تخوض معركة الائتلافيين بعد سقوط الرهان على رجال جمعية الاتحاد والترقي . ونجد أن هذا المأزق لدى الاصلاحيين قد خلق حيزاً من الاستقلالية عن العمل التركي النازع نحو المهيمنة العنصرية ، ودفع نحو مبادرات عربية مستقلة تقدم برامج تتضمن المطالبة بحقوق العرب ، وتمسك بالعثمانية في وجه سياسة الترك .

في هذا الصدد ، يقول لطفي فكري ، وهو من كبار مؤسسي حزب الائتلاف اثناء مهرجان خطابي أقيم في بيروت عام 1912 ، دعي اليه عدد كبير من الوجهاء والأدباء المسلمين والمسيحيين في المدينة : « إن العناصر العثمانية متساوية في الحقوق فلا يجوز أن نسلب فريقتنا ليجيا الآخر ، فقاعدتنا في سياستنا ائتلاف العناصر واتفاقها على حفظ خصائصها في الجامعة العثمانية »⁽²⁹⁾ وفي معرض المقارنة بين الحزبين تقول « المفيد » :

« أما تراهم يطمسون على اللغة العربية حتى في مدارس الأطفال ؟ زر كل هذه المدارس الابتدائية في هذه الولايات فلا تجد للعربية أثراً ، والمدرسة الابتدائية التابعة للرشيدية في مدينتنا هذه واضحة للعيان »⁽³⁰⁾ . وإن خطة المؤتلفين عنصرية عامة لا تعمل لمنفعة عنصر واحد⁽³¹⁾ . وتخلص الصحيفة الى الدعوة الى تأييد حزب الائتلاف « فعلياً أن تؤيد قوة المؤتلفين في الانتخابات جلباً لما ننوهمه من الخير على أيدي المعارضين »⁽³²⁾ .

الصحافة على الحياد

وتجدر الإشارة هنا ، ان تطور المواقف السياسية أدت الى بروز حركة الإصلاح كقوة اجتماعية وسياسية على الساحة البيروتية . والموقف السلبي للسلطة المحلية المثلة بشخص الوالي تجاه المطالب التي رفعتها هذه الحركة ، دفع بالاصلاحيين الى فك ارتباطهم بالأحزاب المتصارعة في السلطنة ، وكان هذا مؤشراً ، لبداية عمل مستقل لهم . لذا ، شكّلت مطالب الاصلاحيين في بيروت عام 1913 ، مرحلياً العامل الموحد للمسيحيين والمسلمين في وجه السلطات المحلية . من هنا ، نرى جريدة « المفيد » المعبرة عن مواقف المسلمين تسير في اتجاه حيادي ، وذلك بعد أن أصدر الوالي في بيروت قراراً بتعطيلها بسبب موقفها المؤيد لحركة الاصلاح . وكان « فتى العرب » وهو الاسم المستعار للصحيفة المذكورة خوفاً أن تصدر كالمعتاد بعد أن حكم على المدير المسؤول فيها وهو الشيخ منيب الناطور بالسجن شهراً ، وبجزاء نقدي قدره عشرون ليرة عثمانية . وتؤكد الصحيفة على هذا الموقف بالقول :

« ... أما موقفنا إزاء الأحزاب السياسية ، فلسنا نمث الى فريق ، بل نحن حزب قومنا ... على أن حزبنا لا يفتأ عن تسديد قواه بحيث تكون له ذاتية خاصة لا يذوب بها مع آخرين ... »⁽³³⁾ .

كما انسحب هذا الموقف على جمعية بيروت الاصلاحية ، حين قال أحد أعضائها أحمد مختار بيهم أثناء زيارة أعضاء الجمعية للوالي :

« إننا لسنا إتحاديين ولا إئتلافين ، فالإتحاديون والإئتلافيون شأنهم في الأستانة ، أما في هذه البلاد فنحن عرب عثمانيون نريد خير بلادنا ... »⁽³⁴⁾ . وفي هذا المجال ، يقول المؤرخ محمد جميل بيهم متقدماً وداعياً الأشخاص المنضوين تحت لواء الأحزاب إلى تركها والعمل إلى خير الوطن :

« ... إن غير الأتراك المتسبين للحزب الاتحادي جلهم طلاب منفعة خاصة لكونه الحزب الغالب . كما أن الأتراك الذين

انخرطوا في الحزب المعارض لم تكن غايتهم الحقيقية المحافظة على حقوق العناصر الأخرى ، بل أرادوا بلوغ الزعامة على أكتاف غيرهم . ولكن ما زال الكل من طينة واحدة . . . »⁽³⁵⁾ .

مواقف الصحافة البيروتية من نزاع الوالي مع اللبنانيين في بيروت

إن الحدث البارز الذي أثار موجة من السخط والاستنكار لدى العديد من اللبنانيين في بيروت هو زيارة بعض القوات التركية إلى منطقة بعبداء التابعة لمصرفية الجبل . والذي أدى بالتالي إلى حرب كلامية خاضتها الصحافة مؤيدة هذا الفريق ضد الآخر . والذي كان للموقف الفرنسي بشخص القنصل في بيروت منه الدور الفعّال في دفع السجال إلى نهايته ، فيما اعتبر الزيارة مخالفة لـ «النظام الأساسي للمصرفية» .

أما ردود الفعل في الصحف المحلية ، كما وردت في تقرير القنصل (M. Conget) بتاريخ 10 شباط 1912 فهي :⁽³⁶⁾ .
كتب صحيفة «البقعة» اللبنانية مقتطفات من الصحف المحلية تحت عنوان : «الصحافة المحلية ودخول القوات العثمانية إلى لبنان» .

وبما جاء في صحيفة «الإقبال»^(١٢) وهي لسان حال الجامعة الإسلامية في بيروت :
«اعترتنا الدهشة عندما علمنا احتجاج أعضاء مجلس الإدارة اللبناني ضد تصرف سعادة متصرف الجبل فيما يتعلق بزيارة القوات العثمانية لأرض تعتبر جزءاً من الامبراطورية العثمانية . . . ونحن نعلم أن النظام الأساسي يمنع دخول قوات عثمانية إلى لبنان إلا بطلب شكلي من الحاكم ، وبعد موافقة مجلس الإدارة ، وبما أن لبنان بلد تابع للامبراطورية تبطل حينها الدهشة . . . وكما تعلمون أنه في الأسبوع الماضي ، أتت مدرعة فرنسية لزيارة هذا البلد العثماني ولم تقابل بأي احتجاج من قبلنا . . . فأعلمونا يا حضرات المستشارين اللبنانيين المحترمين ، وقبل أن نتكلم بصراحة ووضوح وبتفصيل دقيق . . . نحية إلى كل من هو مخلص لحكومته ووطنه» .

رد صحيفة المناظر^(١٣) : «نطلب من زميلتنا (الإقبال) أن تضع حدّاً لغلواتها الذي بدا لنا عنيفاً ، وتسمح أن نتكلم :
« . . . يمنح للجند العثمانيين بالمرور على الحدود اللبنانية دون موافقة الحاكم العام لهذه البلاد ، كما يكون مسموحاً لأي مركب حربي أجنبي بزيارة مرفأ لبناني . فنحن إذ نفتخر ونعتبر بأننا استقبلنا البحارة الفرنسيين الأسبوع الماضي ، لأن هذا واجبنا اتجاه فرنسا ، ولأن هذه الأخيرة تقدم لنا الحماية ، كما أنها تقدم مساعداتها إلى مدارسنا»⁽³⁷⁾ .

أما صحيفة الاتحاد العثماني^(١٤) ، فقد صدرت تحت عنوان : لبنان هل هو عثماني أم أجنبي ؟ وبما جاء فيه :
« . . . احتفت القوات اللبنانية بالكتيبة التركية وقدمت لها التحية العسكرية ، وبعد إنتهاء التمرين عادت أدرجها إلى بيروت بعد أن قوبلت من قبل اللبنانيين بالخفاوة والعطف والوداع» . وتضيف الصحيفة :

« هذا شيء غريب ، فاحتجاج مجلس الإدارة لدى الحاكم على الإذن المعطى للجند الأتراك بالدخول إلى الأراضي اللبنانية يدعو إلى العجب ، فإذا كان هذا الاحتجاج هو حقيقة فعل ما يدل ؟ وعلى أي شيء يستند ؟ بماذا يفكر المجلس ؟ لبنان هل هو عثماني أم أجنبي ؟ إذا كان عثمانياً فماذا يعني اعتراضه ضد الجنود وهم داخل بلدهم ؟ وإذا كان أجنبياً فالنظام الأساسي والدول

(١٢) صحيفة الإقبال ، صاحبها الشيخ عبد الباسط الأنسي ، صدرت في بيروت 9 نيسان 1902 ، واحتجبت عن الصدور عام 1933 ، انظر : ADEL Ismail : Documents... Tome 18, PP. 392 - 393.

(١٣) المناظر : جريدة أصدرها كل من نعم لبيكي وفارس نجم في 9 شباط 1897 في سان باولو (البرازيل) ثم في بيروت ، ثم في عبيدات (المتن) . انظر : ADEL Ismail : Documents... P. 294 - 95.

(١٤) الاتحاد العثماني : جريدة أسسها في بيروت في 22 أيلول 1908 ، كل من حسن طيارة وخليل عورة . انظر : ADEL Ismail : Op cit P. 240.

الكبرى تقول عكس ذلك . . . حقاً انه شيء يثير الغرابة : هناك كثير من الصحف المحلية تدعم هذه الوجهة وتعارض هذه الزيارة بشكل شنيع وجبان ، وهذا ما يدعوا للأسف . وما يرى له ، أن الحماس الوطني وعزة العرب أصبحت ألعبوبة في أيدي المصالح الأجنبية . فهذه الحجج المخجلة تقلل في نظرنا من هبة الوطنية وعزة العرب »⁽³⁸⁾ .

رد صحيفة اليقظة « Le Réveil » : « إن لبنان هو دون نقاش عثماني ، ولكن هذا البلد العثماني له امتيازات وحقوق خاصة منحه إياها الباب العالي بموافقة الدول الكبرى على نظامه الأساسي ، ولا يسمح لأحد بخرق هذا النظام . واليوم وبعد أن قمنا بتمحيص هذا النظام مادة مادة ، وجدنا فيه أن البند الذي يشغلنا يؤكد : على الحاكم استشارة مجلس الادارة قبل السماح بدخول هذه القوات . . . »⁽³⁹⁾ .

ويخلص القنصل الفرنسي في تقريره المشار إليه إلى القول :

« إن صحيفة « المناظر » اللبنانية هي الأولى من بين الصحف التي كان ردّها شجاعاً على الانتقادات الموجهة إلى اللبنانيين من قبل صحيفة « الإقبال » . ونظراً للاهتمام الذي أبدته وزارة الخارجية الفرنسية في هذا الموضوع ، طلبت من القائم بالأعمال الفرنسي في القسطنطينية الاجتماع بممثلي الدول الكبرى الموقعة على النظام الأساسي ، وذلك للاحتجاج على زيارة القوات التركية للجليل بحجة خرقها لهذا النظام . هذا بالإضافة الى الرسالة الثانية التي بعث بها وزير الخارجية الفرنسي (بوانكهره) الى كل من السفراء الفرنسيين في لندن ، وبرلين ، وروما ، يحثهم فيها على تقديم احتجاجهم الى هذه الدول بشأن خرق النظام الاساسي (1864) بزيارة قوات عثمانية للأراضي اللبنانية⁽⁴⁰⁾ .

أما على الصعيد المحلي ، فكان من أهم نتائج هذه الزيارة اجتماع عقده لجنة « أرز لبنان » في بيروت بحضور عدد كبير من مؤيدي هذه اللجنة في 5 أيار 1912 ، رفعت على أثره مقرراتها إلى الدول الكبرى ، وأهم ما جاء فيها :

- 1 - إتهام متصرف الجبل (يوسف فرانكو باشا) بالتهور والهيمنة على قرارات مجلس الادارة والمطالبة بتحديد صلاحياته .
- 2 - إنشاء محكمة تجارية في الجبل بدلاً من بيروت .
- 3 - نقل مقر إقامة المتصرف الشتوي من المدينة الى الجبل⁽⁴¹⁾ .

صحافة المعارضة وقصف الاسطول الايطالي لمدينة بيروت 1912

ساد مدينة بيروت قبل تعرضها للعدوان الايطالي ، جوّاً من التضامن بين طوائفها ، وذلك على أثر اعلان النمسا ضم ولايتي « البوسنة » و « الهرسك » التابعتين للدولة العثمانية . ولدى وصول أبناء هذا الحدث الى بيروت ، بادروا عمال المرفأ الى مقاطعة البضائع العائدة للمراكب النمساوية ، كما دعا عدد من أعيان وتجار المدينة مسلمين ومسيحيين الى تنظيم مظاهرات احتجاج توجّهوا على أثرها الى القنصلية الفرنسية حيوا خلالها التقارب الفرنسي - العثماني ، مشددين على نقل موقفهم الى الحكومة الفرنسية . ومن أجل هذه الغاية ، عقد تجار المدينة اجتماعاً قرروا على أثره رفض استلام البضائع العائدة الى النمسا⁽⁴²⁾ .

لا بد من الاشارة هنا ، بأن موقف التأييد والعطف الذي أبداه سكان بيروت حيال الدولة العثمانية املته الظروف الدولية التي وقف بعض منها ضد العدوان ، إضافة الى الخوف الذي انتاب المسلمين في بيروت على قرب سقوط دولتهم الوشيك امام اطماع الدول الأوروبية ، وقد عبّرت عن هذه الحالة بعض الصحف الصادرة في بيروت في تلك الفترة ، كذلك مواقف بعض السياسيين فيها بدعمهم المطلق للعثمانيين في وجه أعدائهم ، محذرة من مغبة الوقوع تحت السيطرة الأجنبية . ومن الملفت للنظر أن هذه المرحلة قد شكّلت تراجعاً نسبياً في مواقف الصحف التي تعرضت للتعتيل من قبل السلطات المحلية ، فخفت هجة المطالبة بالحرية الصحافية والسياسية . لتقوم بعدها لمواجهة تحريات نزعة التريك حتى بداية الحرب العالمية الأولى .

الصحف تنقل وقائع العدوان أمام تضامن إسلامي مسيحي

أدى تطور الخلاف العثماني - الإيطالي في ولاية طرابلس الغرب (ليبيا) إلى إعلان الحرب بين الدولتين . فأرادت الحكومة الإيطالية التخفيف من مقاومة الجيوش العثمانية في أرض المعركة فأرسلت بعض قطعها الحربية نحو بيروت وبدأت بقصف المدينة .

كانت جريدة « البشير » للآباء اليسوعيين السبّاقة إلى نقل وقائع هذا العدوان ، وهي الصحيفة التي خاضت مجادلات دينية مع الصحف البيروتية الأخرى كما ذكرنا في مطلع هذا البحث⁽⁴³⁾ . هذا ، وقد أحدث العدوان الإيطالي ردات فعل في أوساط الأهالي الذين وقعوا تحت تأثير الانفعالات الحماسية المتطرفة فهاجموا مستودع الذخيرة في دائرة الرديف (الثكنة العسكرية) وبدأوا بالاعتداء على الرعايا الأجانب وبعض الأهالي . غير أن تدارك الوالي لهذه الحوادث وإعلانه الأحكام العرفية محطراً حيازة الأسلحة ونقلها تحت طائلة المسؤولية ، خفف من حدة التحرك⁽⁴⁴⁾ .

وردت صحيفة « المفيد » بعد الإشادة بالتعاون المسيحي الإسلامي على ادعاءات إيطاليا التي قالت بأن وقوع القتل والجرحى من أهالي بيروت كانت إصاباتهم من جراء الاضطرابات التي قام بها « الرعاع » في المدينة . تقول « المفيد » : « إن إشاعة مثل هذه الأكاذيب تحمل بعض الدول على إحتلال بعض الثغور العثمانية حماية للمسيحيين ، ولكن متى علمت إيطاليا أن أهالي بيروت مسيحيهم قبل مسلمهم قد قَبَحُوا عملها المنكر تتحقق أن دسيستهم لم تفلح ، وأن البيروتيين على اختلاف أديانهم إخوان في السراء والضراء لا يحفلون بهذه الأكاذيب⁽⁴⁵⁾ .

أما صحيفة « الحقيقة » فقد أكدت بدورها على علائم الوفاق والتضامن بين الطوائف ، الذي ساد مدينة بيروت في هذه الفترة ، وذلك بنشرها البيان الذي صدر عن رئيس مطرانية بيروت « جراميموس مسرة » الذي دعا فيه إلى وضع جميع بيوت المسيحيين في الجبل تحت تصرف اللائذين بهم من النساء والأطفال والذي جاء معبراً عن لسان حال رؤساء الطوائف المسيحية . « إن أديرة النصرانية وأوقافها وبيوت أهاليها في جبل لبنان مفتوحة لقبول النساء والأولاد من كل الطوائف وفي مقدمتها السادة المسلمون الذين نحن شركاء معهم بالسراء والضراء اتنا نوزع هذه النشرة إحالة عنا وعن سائر إخواننا رؤساء الطوائف النصرانية الذين جاءنا كثيرون من نخبتهم وطلبوا منا إعلان استيائهم الشديد لهذا الاعتداء المنكر . . . »⁽⁴⁶⁾ .

وتوالى المساعدات على منكوبي العدوان ، وكانت جمعية الصليب الأحمر في بيروت وكذلك صاحب صحيفة الثبات (الموالية للفرنسيين) اسكندر خوري من أولى المؤسسات المحلية التي بادرت إلى جمع 7650 قرشاً ، إضافة إلى مساعدات أخرى قدمها أعيان المدينة من المسيحيين والمسلمين ومؤسسات أخرى أجنبية كادارة الريجي والبريد ، وشركة البواخر الخديوية ومن الجالية الألمانية في المدينة⁽⁴⁷⁾ .

جريدة « البشير » تنقل ردود فعل الصحف الأجنبية

نقلت جريدة « البشير » وقائع العدوان كما نشرت في الصحف الأجنبية . وبخاصة ما نشرته الصحافة الفرنسية التي غيّرت عن الصحف الأجنبية الأخرى باهتمامها البالغ بالعدوان وادانته وهددت الدولة المعتدية بعواقب وخيمة في حال تكرار اعتداءاتها . تقول صحيفة « إيكون دي باري » في هذا الصدد :

« . . . إذا كرّر الإيطاليون العمل واتخذوا بيروت نقطة لإجراء أعمالهم العدائية ضد تركيا فإن الأمر حينئذ يزد إشكالاً لأن بيروت هي النقطة المركزية للنفوذ الفرنسي في تلك الأنحاء وعليه إذا قامت إيطاليا بعمل حربي هام فيها تكون عاقبته وخيمة على المصالح الفرنسية وتحمل إيطاليا مسؤولية عظمى⁽⁴⁸⁾ .

أما جريدة التايمز الصادرة في لندن ، فقد أظهرت أسفها على هذه الحادثة بقولها :
«إن حكومة إنكلترا تغضب من كل حركة تستدعي كدر المسلمين » .

أما جرائد المجر فقد علّقت بدورها « إن إيطاليا تريد تحريك المسلمين على النصارى لكي تحمل الدول على المداخلة »⁽⁴⁹⁾.
أما صحيفة « البوست » الألمانية فقد لُزمت جانب التحفظ « إن حادثة بيروت تهم بشكل خاص كل من إنكلترا وفرنسا »⁽⁵⁰⁾ .
شهدت مدينة بيروت خلال هذه الفترة جملة من الأحداث تركت آثارها السلبية على مجمل العلاقات الاجتماعية القائمة في المدينة . فقامت الصحافة البيروتية بنقل صورة واضحة لها ، فجاءت معبرة بشكل دقيق عن مجمل التناقضات التي عاشتها المدينة ، خاصة وجود عدد من الصحف التي تباينت مواقفها ووجهات نظرها بالنسبة للحدث الواحد : كما كانت أكثر موضوعية كمصدر اعتمدنا عليه لنقل الوقائع .

مراجع البحث:

- (1) غزوات فرنسا على الجزائر وتونس والمغرب ومصر : 1830 - 1882 - 1912 ، غزوة إيطاليا على طرابلس عام 1911 ، ضرب مدينة بيروت بالمدافع 1912 . كان يرافق ذلك غزو اقتصادي واسع ، وانتشار ثقافي . ولقد أبقت هذه الغزوات أشكالا من المقاومة . ونبت المتورين الى المخاطر المحدقة .
- (2) أنظر المادة الخامسة من قانون الصحافة في العهد العثماني والرقابة عليها قوانين عام 1865 - 1909 .
- (3) أنظر فيليب دي طرازي : تاريخ الصحافة العربية ، الجزء الثاني ص 16 وما بعدها .
- (4) راجع : ابراهيم الأسود : تنوير الأذهان في تاريخ لبنان ج 2 ص 318 بيروت 1927 .
- فيليب دي طرازي : مرجع سابق ، الجزء الأول عام 1913 ، ص 118 .
- زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية ، دار النهار للنشر 1979 ، ص 61 و 196 .
- (5) ADEL Ismail: Documents diplomatiques et consulaire, Tome 14, p.251.
- (6) ADEL Ismail : « Documents ... » Tome 14, pp 252 - 253.
- انظر أيضاً موقف المسلمين من هذه المنشورات في مذكرات سليم علي سلام 1908 - 1918 - مخطوط ص 5 .
- (7) فيليب دي طرازي : تاريخ الصحافة العربية الجزء الأول 1913 ، ص 138 .
- (8) المرجع نفسه ، الجزء الثاني ، ص 126 - 127 .
- (9) المرجع نفسه : الجزء الثاني ، ص 24 ، و 35 .
- (10) المختطف : مقالة بيروت وحوادثها ، الجزء 11 ، المجلد 28 ، عام 1903 ، ص 952 .
- (11) المختطف : المصدر السابق ، ص 953 - 954 .
- (12) ADEL Ismail : Documents... op cit tome 18 pp. 106 - 108
- (13) ADEL Ismail : OP Cit... P. 266
- (14) ADEL Ismail : Documents... OP cit pp, 272 - 274, 292 - 296
- (15) ADEL Ismail : OP cit pp, 298 - 300
- (16) ADEL Ismail : Documents... Tome 19 pp, 346 - 47 - 49 - 50 - 51 - 953.
- (17) ADEL Ismail : Op cit... PP, 353 - 355.
- (18) المفيد ، عبد الغني العريسي ، مقالة « لبنان يسيء إلى نفسه » عدد 21، كانون الأول 1909 .
- (19) الأرز : جريدة يومية مديرتها المسؤول فيليب الخازن صدرت في جويلية ، عام 1895 ، انظر : ADEL Ismail : OP cit PP, 252, 353 - 354.
- (20) ADEL Ismail : « Documents... » Tome 18, P. 356.
- (21) ADEL Ismail : OP cit, PP, 357 - 58 - 58.

- (22) المفيد : عبد الغني العريسي ، مقالة : « الموقف في البلقان وفي غيره من البلاد العثمانية » ، عدد 1170 ، 7 كانون الثاني 1913 .
- (23) المفيد : مقالة « ولاية أدهم بك » عدد 12,186 ايلول 1909 .
- (24) المفيد : عدد 20,243 تشرين الثاني 1909 .
- (25) ADEL Ismail : Documents... Tome 18, PP. 275 et 278, 281, 301.
- (26) المفيد : مقالة « الوطن العثماني للعثمانيين » عدد 23, 37 آذار 1909 .
- (27) المصدر نفسه : مقالة « اللغة العربية في بيروت حياة العرب بحياة لغتهم » عدد 24, 170 آب 1909 .
- (28) المفيد : عبد الغني العريسي بمقالة « لا عرب ولا ترك » عدد 8, 686 أيار 1911 .
- (29) المفيد : عبد الغني العريسي « آتينا أحق أن يتبع » عدد 4, 1062 آب 1912 .
- (30) المصدر نفسه : عدد 1912, 1062 .
- (31) المصدر نفسه : الحزبان وحركة الانتخابات « عدد 934 ، 19 آذار 1912 .
- (32) المصدر نفسه : عدد 934 .
- (33) فتي العرب : عدد 1435 ، 15 كانون الأول 1913 ، السنة الخامسة ، ص 2 .
- (34) المصدر نفسه : عدد 1436 ، 16 كانون الأول 1913 ، السنة الخامسة ، ص 2 .
- (35) الرأي العام : مقال بعنوان « ما بين الائتلاف والاتحاد نكاد غمزق شمل البلاد » ، محمد جميل بيهم ، 21 شباط 1913 .
- (36) ADEL Ismail : OP cit PP. 396 - 397.
- (37) ADEL Ismail : OP cit PP. 394 - 396.
- (38) ADEL Ismail : Documents Op cit PP. 397 - 98.
- (39) ADEL Ismail : Documents... OP cit Tome 18, P. 399.
- (40) ADEL Ismail : OP Cit PP. 407 - 408.
- (41) ADEL Ismail : Documents... PP. 456 - 57 et 461 - 462.
- (42) ADEL Ismail : Documents... PP. 456 - 57 et 461 - 62.
- (43) انظر البشير عن وقائع الهجوم ، عدد 2117 ، السنة 43 ، أول آذار 1912 ، ص 2 .
- (44) المفيد : عدد 917 ، السنة الرابعة ، 27 شباط 1912 ، ص 3 .
- (45) المفيد : مقالة « أكاذيب إيطالية » عدد 4, 921 آذار 1912 ، ص 3 .
- (46) الحقيقة : عدد 422 ، 27 شباط 1912 ، ص 3 .
- (47) المفيد : عدد 952 ، 9 نيسان 1912 ، ص 2 .
- (48) البشير : عدد 2122 ، السنة 43 ، 17 آذار 1912 .
- (49) المفيد : عدد 924 ، السنة الرابعة 7 آذار 1912 .
- (50) البشير : عدد 2119 ، 8 آذار 1912 .